الفلسفة والقيم الجمالية

تدرس الفلسفة ثلاثةَ مباحثَ رئيسةٍ هي:

1- مبحث علم الوجود "أنطولوجي Ontologie"، وهذا المبحث يسأل عن جوهر الوجود، أنا من أكون؟ ما الفرق بين المجرد والمحسوس؟ هل الإنسان جسدٌ فقط أم هو جسدٌ وروح؟ أين تذهب هذه الروح؟

2- مبحث "المعرفة Epistémologie"، يبحث في طرق المعرفة ، هل تكون المعرفة عن طريق الحوَّاس أم عن طريق العقل أم ماذا؟

3- مبحث القيم "Axiologie أكسيولوجي" ويتناول القيّم، وأهم القيم: الحق " المنطق" والخير "الأخلاق" والجمال" علم الجمال"، وهناك بطبيعة الحال اختلاف بين الفلاسفة في النّظر لهذه الأمور.[1]

ما يهمّنا نحنُ هو المبحث الثّالث، والنقطة الثالثة، وهي الجمال لارتباطه بالفن، وارتباطه بالأدب باعتباره فنًّا وارتباطه بنظرية الأدب.

كلمةُ جمال كلمة فضفاضةٌ نُطْلِقها على كثير من الأشياء، فنصفُ شخصًا بأنّه جميل، ونَصِفُ منْظرًا بأنّه جميل، ونَصِفُ الخطابَ بأنه جميل، ونقول أيْضا اللهُ جميلٌ، ولو سألنا عن معايير الجمال لوجدناها تختلف حسب الثّقافات والأزمنة والانتماء الطّبقي، ومن هنا صعوبةُ تصورٍ ثابت للجمال، فالناس لا يتفقون على مقاييسَ ثابتةٍ ودقيقةٍ للجمال، ومع ذلك يُمْكِن تحديدُ بعض المعايير باعتبارها مقولاتٍ عقليةٍ يتفق عليها النّاس.

على ماذا يُطْلق الجمال؟ الجمال صفةٌ نُطلقها على مظاهر الطبيعة، وعلى الكائنات، وعلى الأعمال الفنيّة، والجمال موجود حوْلنا وداخِلنا.

علم الجمال :

لم يكْتفِ الإنسانُ بالتّمتع بالجمال فقط بل تعمق فيه، وظهر علمٌ يُسمى علم الجمال، وهو كما ذكرنا فرع من فروع الفلسفة، وعلم الجمال استحدثه الفيلسوف الألماني "ألكسندر قُوتْلِيبْ بُوقْمَارْتَنْ1762-1714 Alexander Gottlieb Baugmarten "وقد وضع كتابًا حول علم الجمال عام 1750. إذن علم الجمال كعلم جديد ظهر مع هذا الفيلسوف، ويبحث هذا العلم في المعرفة الجمالية، ويساعدنا على التمييز بين الأشياء الجميلة وغير الجميلة،أما الجمال فهو قديم، فمنذ أفلاطون وأرسطو نجد الجمال والتّطرقَ إليه وأصل الكلمة يوناني Esthétique و ينصرف إلى المَحْسوسات مقابل Logique الذي يعني المنطق. الكلمة إذن ليست لِـ "بوقمارتن" بل هي قديمة، وهو إنَّما حاول تحديدَ فلسفة الجمال ليميّز المعرفة الجمالية. لماذا لا نَعْتبر علم الجمال موجودًا منذ القديم رغم وجود الجمال والحديث عنه والإحساس به؟ والجواب أنَّنَا عندما نبحث في العصر اليوناني نجد الجمال عندهم مختَلِطًا بالفكر الميتافيزيقي أو الأخلاقي، فالتّفكير الجمالي لم يكن مسْتقلا، ولم يكن قائما بذاته، فهو لم يتميز كمجال معرفي بل كان تابعا لمجالات أخرى.

وإذا نظرنا إلى "فيثاغورس"وهو مشهور بالرياضيات والنِّسب نجده يتكلّم عن نِظام العالم السّماوي، يتكلم عن المجرات وعن النظام الموجود في الكون، وعن الجمال فيه، ولكنه في حديثه عن الجمال يحْتكِم إلى مِعْيار رياضيّ، وبالتالي فالجمال عنده ليس مُسْتقلا وليس قائما بذاته، فهو يتكلم عن النّسب بين الكواكب.

1- مباحث الفلسفة ، موقع https://lesociologie.blogspot.com/2017/03/blog-post_71.html تاريخ الزيارة 2020/07/15

وإذا تكلمنا عن"أفلاطون" نجده يشترط على الشعراء أنْ يخْدموا المجتمع، وقد ربط بين الفن الجميل والأخلاق وإذن فإن "أفلاطون" اعتمد المعيارَ المعرفي والأخلاق في الفن، والشّئ نفسُه بالنّسبة لأرسطو.

مرحَلة العُصُورالوُسْطى (ق 5-11م)

في هذه الفترة كان الفكرُ الجمالي تابِعًا للدّين أو اللّاهوت، أي الكِتاب المقدس بالنسبة للمسيحيين، فقد كان كل شيءٍ في خدمة الدين العلم والفن، وكذا الشأن بالنسبة للمسلمين، فكل الجهود منصبةٌ لخدمة الدين، وإذن فإن الفرق بين المرحلة اليونانية وهذه الفترة أن الدّين صار هو المُسَيطر،فالموسيقى كانت مرتبطة بالترانيم المسيحية والفنون كذلك كانت جماعية وليستْ فردية، وإذا انتقلنا إلى الحضارة العربية الإسلامية نجد موقفَ الشّرع الذي يُحْرِمُ بعضَ الفُنون مثل النَّحْت وحتّى الرّسم وكثرة المبالغات، ولكن الموقف الواقعي أو أساليب المعيشة نجد فيه كثيرًا من الفنون وخاصة في الأندلس، فهناك الزّخارف والتّصاوير حتى في المساجد، فالإحساس بالجمال موجود والحديث عنه موجود ولكن كعِلْم هل كان موجودًا؟

في الحقيقة لم يشتهرْ علم قائم بذاته يُسمى علم الجمال، لكنَّ الباحث المغربي محمد المعزوز له كتاب علم الجمال في الفكر العربي القديم، يرى فيه أنَّ الفكر العربي عَرَف الجمال من خلال المؤلفات الفلْسفية والنّقدية وحتّى الدينية، فما ألّفه ابن سينا [1]مهمٌ جدا في كتابه الإشارات والتنبيهات، وكذا الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد المولود عام 260هـ-874 في فاراب بإقليم تركستان كازاخستان حاليا، وتوفي عام 339 هـ 950 م) وكذا الكِنْدي (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي 185هـ 256 هـ - 805م 873) قيل إنهُ هو من حدّد ما يُسَمَّى بالنُّوطة الموسيقية. ففي رأي هذا الباحث، فإن علم الجمال كان موجودًا لدى العرب، أحسن مما هو عليه الأمر الآن، حيثُ صارت التربية الفنية والجمالية هامشيةً وتابعةً وكماليةً، فكانت النتيجة أنْ اكتسح الشّر مكان الخير، ووجدت الحركات التّدميرية والتصرفات غير الآدمية، بينما لدى العرب، نجد حضارةً متكاملةً يسودُها الفنّ والجمال والأخلاق.

الجمال والفن

هناك ارتباطٌ وثيقٌ بين الفن والجمال، وفي حديثنا عن الجمال قلنا: إنّنا نُطْلِقه على الطّبيعة وعلى البشر وعلى الأعمال الفنية، فالفنُ له قدرة على توليد الجمال، والفنُّ هو كل عمل إبداعيٍّ بشريٍّ يتميز بالصّنعة والمهارة وهو إنتاج جمالي ومن أمثلة الفن: اللوحات الفنية - الزخارف- النحت- الموسيقى- الأزياء- الشعر- الرّسم. فالفن إذنْ عملٌ إنسانيٌّ يتَّبِعُ فيه المُبْدِعُ جملةً من القواعد لتحصيل غايةٍ معينةٍ جمالاً كانت أم خيرا أو منفعةً، فإذا حقق هذا الفن جمالا فهو فن جميل، وإنْ حقّقَ خيرا فهو فن الأخلاق، وإن حقق منفعةً فهو فن الصّناعة. فهل غاية الفن المتعة أم هدفه المنفعة؟ هنا نجد اختلافا بين النّاس وبين النزعات الفكرية والمذاهب ونجد بصورة خاصة الرأيين المتناقضين الآتيين: الرأي الذي يرى بأن الفن بعيدٌ عن تحقيق غايةٍ مُعينةٍ وأبرز القائلين بهذا الاتجاه "شوبنهور" "برجسون" ويتبعون الفلسفة المثالية عند "كانت". ف"شوبنهور" (أرْتُور شُوبِنْهَورْ 1788-1860) فيلسوفٌ ألماني متشائمٌ يقول إنَّ الفن هو فرار من المظهر إلى الحقيقة المثالية، وهو طريق الخلاص، والسَّلام النَّفْسي، فالذَّاتُ في الفنّ تتحرر من كل القيود، والمُتْعة الحقّة لا تتحقق إلا بالتّحرر من الإرادة الفردية والاستغراق في التّلذذ، والفن أداة للعلاج النفسي. أما

1- ابن سينا هو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، عالم، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما، وُلِد في قرية أفشنة بالقرب من بخارى في أوزباكستان حاليا، من أب من مدينة بلخ في أفغانستان حاليا، وام قروية. ولد سنة 370هـ 980 م وتوفي في همدان إيران حاليا سنة 427هـ 1037م . عُرِف باسم الشيخ الرئيس وسماه الغربيون بأمير الأطباء وأبو الطب الحديث في العصور الوسطى، وقد ألف 200 كتابا في مواضيع مختلفة، العديد منها يركز على الفلسفة والطب،

بِرِجْسُونْ(هنري برِجْسُون Henri Bergson1859- 1952) الفرنسي الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 1927 فيرى أنَّ الفنَّ ليس له غاية سوى المتعة والنشوة، فهو تجربةٌ صوفيةٌ تُحْدِثُ ضربًا من الانفصال عن الواقع.

أما الرأي الآخر فيمكن أن نُمثل له ب "جُونْ دِيوِي John Dewey 1859-1952"وهو يرْبط الفن بالواقع ، يربط التجربة الجمالية بالواقع الإنساني وبحياة البشر.

وظائف الفن عند "شَارْل لاَلُو" من خلال كتاب مبادئ علم الجمال Notion d'esthétique

بيّن لالُو خمسة أوْجه لعلاقة الفن بالحياة وهي:

1- الوظيفة الترفيهية للفنّ أو وظيفة اللّهو" La fonction de diversion" فالفن يُنْسينا الحياة، ويصرفنا إلى التسلية والترفيه، وهذا رأي "كانت" و"هربرت سبنسر "وكذا رأي "فْلُوبِير "و"لا مَارْتِين" .

2- الوظيفة التّطهيرية"La purgation des passion" أي التّحرر من الآلام والانفعالات الضّارة فالمأساة تعملُ على استبعاد مشاعرِ الخوف وطردِها.

3- الوظيفة التكنيكية للفن"l'activité technique" أيْ ممارسة الفن لذاته دون الارتباط بأيّ غاية أخلاقية أو عاطفية أو دينية أو سياسية، وهذا الموقف هو موقف مدرسة الفن للفن كما نجد عند"بودلير" و "أُوسْكار وايْلد"، فالفنان عندهم غير مطالب بأي التزام ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه في الأدب العربي الدّكتور زكي نجيب محمود.

4- الوظيفة المثالية للفن أو الوظيفة التحسينية La fonction perfectionnement وهي أن الفن يقدمُ صورةً مثالية أو نموذجا أعلى، بواسطة الخيال كما نجد في أقاصيص البطولة.

5- الوظيفة التّسجيليّة أو وظيفة التكرار"La fonction de redoublement" و وظيفة الفن حسب هذا الموقف تسجيلُ ظروف الحياة مع العمل على تعديلها، فقد تكون هذه النزعة طبيعيةً كما عند "تين" أو واقعية كما عند "زولا" أو وجودية كما عند"سارتر"، وبذلك يكون الفن أداةً يصوغُ بها الفنان حياتَه أو حياة الآخرين مع شيء من التعديل.

يؤكد "شارل لالو" على مايلي: «**ليس هناك ما هو أكذبُ من "النّقد على أساسِ تاريخِ الحياة" الذي يرى أن "هذا العمل الفنّي من ذاك الرجل الذي خلقه" والحقُ أنّ كثيرًا ما يحدث أنّ الرجل بدلا من أن يضعَ في عمله الفني ما هو عليه، يضع ما يعتقد أو يودُّ أنْ يكون أو ما يمكن أنْ يُصْبِحَه أو ما يخشى أنْ يؤول إليه، وفي هذه الحالة علينا أن نقول " هذا الرجل خلافُ هذا العمل الفني**» [1]

خصائص الجمال ومقاييسه

للكاتب صالح بن أحمد الشّامي موضوع بعنوان "خصائص الجمال ومقاييسه" فيه إشارات هامة لآراء بعضِ العلماء والفلاسفة حول الأحكام الجمالية، ومن بينها ضرورة عدم فرض قواعدَ مسبقةٍ تلزِم الفنان باتباعها لتحقيق الجمال في إبداعه، وهذه النّصيحَة أسْدَاها "فِلْدْمَانْ" وهو أحدُ علماء الجمال الفرنسيين حيث يقول: ينبغي ألا يتدخَّل عالَمُ الجمال في فرضِ القواعدِ التي ينبغي أن يلتزِمَ بها الفنان لتحقيق الجمال في إنتاجه، أوْ أنْ يشترِط للجمال شروطًا مُعَيَّنة، بل هو يبحث في أحكام النّاس الجماليّة شأنُه في ذلك شأن عالم المنطق، لا يفرض على العلماء قواعدَ التفكير

1- شارل لالو: مبادئ علم الجمال، ترجمة مصطفى ماهر، مراجعة وتقديم يوسف مراد، المركز القومي للترجمة ،القاهرة ص 57

العنوان الأصلي للكتابNotion d'esthétique; par Charles Lalou

التي عليهم أن يسيروا عليها، بل هو يكتفي بتحليل خطوات تفكيرهم.[1] ويبحث في أحكام النّاس الجماليّة شأنه في ذلك شأن عالم المنطق ،

ومع أهميّة هذه الفكرة، فإن بعضَ العلماء حاول أنْ يُثبت بعضَ الخصائص التي يتّصِف بها الشّئ الجميل ، ومنهم الأيرلندي "أدموند بيرك Edmund Burke 1729-1797م"فهو يرى أنّ الشئ الجميل يتصفُ بخصائص أهمها: الضآلة، والرّقة، والتّنوع المتدرج بين أجزائه، وعدم اتصال هذه الأجزاء بعضُها ببعض على شكل زوايا، ونعومة المظهر، أو اختفاء كل مظهر، ووضوح اللون، وبريقه دون أن يكون خاطِفًا، والألوان الهادئة أي الفواتح هي أقرب إلى سمة الجمال من غيرها من الألوان القاتمة، ومن ناحية الأصوات نجد أن الصوتَ النّاعم الرقيق هو الذي يوصف بالجمال، دون غيره من الأصوات الهادرة الخشنة، ومن ناحية الأصوات نجد أنّ الصّوت النّاعم الرقيق هو الذي يوصف بالجمال، دون غيره من الأصوات الهادرة الخشنة، ومن ناحية الملْمس- والمَلْمس عندهم أهم حواس إدراك الجمال-نجد أنّ الأجسام الصّقيلة أقرب إلى الجمال من الأجسام الخشنة الملمس.

ويرى عالم الجمال الأنجليزي"هُوجَارْتْ (1697-1764) أن أهم العوامل المؤثرة في التقدير الجمالي هي: التناسب، والتنوع، والاطراد، والبساطة، والتعقيد، والضخامة[2]

وإذا كان " أدموند بيرك " و"وليم هُوجَارْتْ" 1697-1764 وغيرهم كثيرٌ،قد اتجهوا إلى الحديث عن الخصائص الظاهرة للشئ الجميل، فإن فريقًا آخر اتجه إلى إعْطاء الخصائص الباطنيّة أو المعنويّة اعتبارَها، ونثبت - على سبيل المثال- رأي "بِنِدِّتُو كْرُوتْشه" 1866-1956في هذا الصدد حيث يرى:

1- ألاَّ يكون الفنُّ ظاهرةً فيزيائيةً، أو واقعةً طبيعيةً، ومعنى هذا نقد سائر النزعات التجريبية في علم الجمال، فالظاهرة الفنية واقعة لا تقبل القياس، بل هي حقيقة روحية.

2- ألا يكون الفن فعلا نفعيًّا، وهذا رفض لمذهب" اللذة" أو "المنفعة"

3-ألَّا يكون الفن "فعلا أخلاقيّا" فإذا كانت الإرادة الخيّرة هي قِوام الإنسان الفاضِل، فإنها ليستْ قِوام الإنسان الفنان، ومعنى هذا وضع الفنِّ خارجَ نِطاق الأخلاق، وهو بالتالي رفضٌ لفكرة " الفن المُوجه"

4- وهو يرفض أن يكونَ الفنُّ مجردَ معرفةٍ تصوُّرية، وبهذا يكون الفن في مُقابل العلم... ويتقرر بناء عليه نفور الفن من العلوم الوضعية والرياضيات أشدَّ من نفوره من الفلسفة والدين والتّاريخ.

إن لمختلف الآراء السّابقة مناصرين ومعارضين ، مما يؤكد عدم صلاحية الجمال للانضواء تحت التقنية أو الخضوع إلى قواعد عِلمية، وهذا ما تنبّه له"هيجل"حيث قال: يظهر أن الفن يتعذر عليه أنْ يصْلُح للدراسة العلمية.

مقاييس الجمال

هل هناك مقاييس يُمكن اعتمادها في تقدير الجمال؟ والإجابة على هذا السُّؤال تتوقف على النظرة للجمال، فيما إذا كان من الممكن أن نُطبّق عليه معايير العلم، أمْ لايُمْكِن ذلك؟ والذين ذهبوا إلى النفي، علّلوا ذلك بتعليلاتٍ مختلفةً، فـ"هيجل" يرى أن الجمال أمرٌ عَرَضِيٌّ، والعِلْم هو للضروري وليس للعرضي، وبالتّالي فإنه يستحيل صوْغ معيارٍ للجمال، ذلك أن الأذواقَ تختَلِفُ إلى مالا نهاية، أما الذّين يذهبون إلى إمكانية القياس فيرى بعضُهم أنَّه يمكن الرّجوع إلى واحدٍ من الثّلاثة التّالية حيث يكون الحكم:

1- صالح بن أحمد الشامي: خصائص الجمال ومقاييسه، https://www.alukah.net/culture/0/53060 تاريخ الإضافة 2013/4/15م تاريخ الزيارة 2019/11/08

2- محمد أبو ريان: فلسفة الجمل ونشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة، الإسكندرية، مصر، ص ص32-35

أ- إما بالاستناد إلى آراء علماء الجمال والفلاسفة.

ب- وإمّا بمقارنة الأعمال الفنية بعضها ببــعض.

ج- وإما بالاعتماد على الطبيعة، لأنّها تبدو في بعض الأحيان المعيارَ الذي نقيسُ به العملَ الفني الجميل.[1]

ونظرةٌ سريعةٌ على هذه المقاييس تجعلنا على يقين من عدم قدرتها على الوفاء بالمطلوب،إذ هي مقاييسٌ رَجْرَاجَةٌ لا يمْكِن الاعتمادُ عليها والوثوق بها، فآراء علماء الجمال تَتْبَع فلسفاتِهم التي تمتدُّ على السَّاحة؛ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، مما يجعل تلك الأحكام مختلفةً.. ومقارنةُ الأعمال ببعضها يجعلنا نتساءل : أيّها المقياس الذي ينبغي لأن يتم اعتمادُه، المتقدم أم المتأخر؟ العمل الذي منْ صُنْعِ الرُّواد المشهورين ، أم أي عمل و لو كان صانعُه من المغمورين؟ وفي هذه الحالة يكون الحكمُ لا على العمل الفنيّ لذاته، وإنَّما من خلال صانعه. وإذا اعتمدنا على الطبيعة، تَصَدَّى لنا وعارضنا الذين يُنْكِرون أسْتَذَتَها، وينكرون مُحاكَاتَها، وبالتالي يرفضون اعتمادَها.

إنَّ الحُكْم الجمالي سيظلُّ حُكْمًا فرْدِيًّا، ذلك أن هناك عواملَ كثيرةً تدخل في عملية الحكم، ترجع إلى شخصية المتأمل، سواء أكان فنانا أم عالمًا أم ناقدا أم مُشَاهِدًا عاديا، فالذوق، والثّقافة الفنيّة، والقيّم التي يهتم بها، وأهمية الموضوع بالنسبة له، وحالتُه النفسية في تلك المرحلة.. إنها عوامل كثيرة .. ومن غير المُنْتَظر حصولُ اتفاق عام ، وبذلك تبقى المقاييس الشخصية هي المرجع.

1- صالح بن أحمد الشامي: خصائص الجمال ومقاييسه، المرجع السّابق ، نقلا عن فصول في علم الجمال. برجاوي، ص ص 31 - 32. رابط الموضوع https://www.alukah.net/culture/0/53060